التقديم والتأخير، والتجريد والزيادة، والإسناد

في القرآن الكريم: دراسة مقارنة

إعداد الدكتورة:

آلاء طـريف غرايبـة

محاضـر متفرغ، مركـز اللغـات

جامعـة العلـوم الإسلاميـة

عمان، الأردن

مجلة
كلية
الدراسات
الإسلامية

مجلة
كلية
الدراسات
الإسلامية

الملخـــص

يهدف هذا البحث إلى دراسة مباحث علم المعاني من حيث: التقديم والتأخير والتجريد والزيادة والإسناد إلى الفاعل والمفعول الواقع في بعض آيات وسور القرآن الكريم، وجمع الشواهد القرآنية التي تضمنتها من تسع سور من القرآن الكريم، هي: (الملك، الحديد، التغابن، الصف، الجمعة، الطلاق، الحشر، الإنسان، الواقعة) ، وقد توصل البحث إلى سبعة شواهد، منها شاهداً واحداً في التقديم والتأخير في سورة الملك، وشواهد ثلاثة للتجريد والزيادة في سور المسبحات (الحديد، الجمعة، الصف، الحشر، التغابن)، وشواهد ثلاثة في الإسناد للفاعل والمفعول في سورتي الإنسان والواقعة، وقد استند البحث في استقراء الشواهد على توجيه أبرز أئمة التفسير والتوجيه، مع بيان لرأي الباحثة أينما تطلب ذلك، وستصنف هذه الشواهد القرآنية وفق أنواعها من ضمن المتشابه اللفظي من حيث التقديم والتأخير والتجريد والزيادة والإسناد.

الكلمات المفتاحية: التقديم والتأخير، التجريد والزيادة، الإسناد.

Structural Transposition (*Taqdīm wa Ta'khīr*), Morphological Analysis (*Tajrīd*), Suffixation (*Ziyādah*) and Syntactic Governing (*ʾIsnād*) in the Holy Qurʾān: A Comparative Study

By: Dr. ʾĀlāʾ Tarif Gharaybah

Lecturer Emeritus at the Language Center, The World Islamic Sciences University, Amman, Jordan

Alatarif88@gmail.com

Abstract

This research paper aims to study the following aspects of semantics in some of the Qurʾānic verses: transposition (*taqdīm wa ta'khīr*), morphological analysis (*tajrīd*), affixation (*ziyādah*), and syntactic subject-object governing (*ʾisnād*). The Qurʾānic examples are quoted from nine chapters of the Qurʾān, namely Al-Mulk (Ch. 67), Al-Ḥadīd (Ch. 57), At-Taghābun (Ch, 64), Aṣ-Ṣaff (Ch. 61), Al-Jumuʿah (Ch. 62), Aṭ-Ṭalāq (Ch. 65), Al-Ḥashr (Ch. 59), Al-ʾInsān (Ch. 76), Al-Waqiʿah (Ch. 56). The study extracts seven examples, one for transposition in Ch. 67, three for morphological analysis and addition in Chapters 57, 62, 61, 59 and 64, and three for subject-object governing in Chapters 76 and 56. The research has extracted the examples based on instructions of prominent scholars of Qurʾānic exegesis, with commentaries from the researcher whenever required. The Qurʾānic examples are categorized according to their aforementioned types, in the light of polysemy.

Key words: structural transposition, morphological analysis, suffixation, syntactic governing, polysemy

المقـدمـــة

يعد التقديم والتأخير والتجريد والزيادة والإسناد من أهم وأبرز مباحث علم المعاني، حيث تظهر فيها بلاغة الأساليب، وروعة العبارات، كما تدل على تمكن البليغ في الفصاحة، وحسن تصريف الكلام.

وقد أبان الإمام عبد القاهر الجرجاني [1] أهمية التقديم والتأخير في القرآن الكريم، حيث يقول:" هو باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفتر لك عن بديعه ويفضي بك إلى لطيفه، ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، وحُوّل اللفظ عن مكان إلى مكان[2].

ويندرج تحت التقديم والتأخير ثلاثة أقسام:

القسم الأول: تقديم كلمة وتأخيرها: ومثال ذلك قوله تعالى: {قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} (الأعراف: ١٨٨). وقوله تعالى: {قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ} (يونس: ٤٩).

بتقديم كلمة (نَفْعًا)، وتأخير كلمة (ضَرًّا)، في الآية الأولى وعكس وذلك في الآية الثانية.

القسم الثاني: تقديم جملة وتأخير:

---

(١) هو: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني النحوي الشافعي، كان متكلما أشعريا، من أشهر مصنفاته: دلائل الإعجاب، والجمل، وشرحه التلخيص، والعمدة في التصريف، والمفتاح، وشرح الفاتحة، وغيرها، توفي سنة٤٧١ه؛ وقيل ٤٧٤هـ. (أنظر طبقات الشافعية١/ ٢٥٢)

(٢) أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، السعودية، ١٩٩٢.

مثال قوله تعالى: {وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى} (القصص: ٢٠).

وقوله تعالى: {وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى} (يس: ٢٠).

بتأخير جملة {أَقْصَى الْمَدِينَةِ} في الآية الأولى وتقديمها في الثانية.

ويكتسب هذا البحث أهميته من تناوله لتشابه الألفاظ والجمل من حيث: التجريد، والزيادة، والتقديم، والتأخير، والإسناد في القرآن الكريم، إضافة إلى قلة البحث والدراسة في هذا المجال.

إلا أن الباحثة استطاعت الاطلاع على ما تيسر لها من دراسات، ومن أبرزها:

- دراسة محمد راشد البركة (٢٠٠٤)، بعنوان: "المتشابه اللفظي في القرآن الكريم وتوجيهه، وجاءت الدراسة في جزئين، اجتهد فيها الباحث أن يؤسس لمنهج توجيه المتشابه اللفظي من خلال استنتاج القواعد من مناهج السابقين في توجيه المتشابه اللفظي[١].
- دراسة شاهر مشاهرة (٢٠٠٤)، بعنوان: "المتشابه اللفظي في القرآن الكريم دراسة نحوية بلاغية، دراسة نحوية بلاغية"، غلب على هذه الدراسة الجانب النحوي واللغوي، مع الاهتمام بالجوانب البلاغية في المتشابه اللفظي الوارد في القرآن الكريم، وقد قام الباحث بدراسة عينات من المتشابه اللفظي لتكون أنموذجاً لكيفية توجيه المتشابه اللفظي في المفردات والجمل، فتكلم عن التضمين، والتناوب، والحذف والذكر في الحرف، والفك والإدغام[٢].

(١) محمد راشد بركة، المتشابه اللفظي في القرآن الكريم، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، السعودية، ٢٠٠٤.

(٢) شاهر مشاهرة، المتشابه اللفظي في القرآن الكريم: دراسة نحوية بلاغية، رسالة دكتوراه غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، ٢٠٠٤.

- دراسة صالح عبدالله الشثري (٢٠٠٤)، بعنوان: "المتشابه اللفظي في القرآن وأسراره البلاغية"، وتناول الباحث في دراسته الآيات المتشابهة، من حيث: المتشابه اللفظي في الكلمات، والجمل، والاختلاف بين الآيات المتشابهة في اختيار الصيغة، والإفراد والجمع، والتذكير والتأنيث، والتعريف والتنكير، والذكر والحذف، والتقديم والتأخير، ثم ختم البحث عن الاختلاف بين الآيات المتشابهة في باب الفصل والوصل [١].
- وفي دراسة أخرى قامت بها تهاني بنت سالم باحويرث (٢٠٠٧)، بعنوان: "أثر دلالة السياق القرآني في توجيه المتشابه اللفظي في القصص القرآني في آيات قصص نوح وهود وصالح وشعيب عليهم السلام [٢].
- دراسة إبراهيم عبد العزيز الزيد، (٢٠١٠)، بعنوان: "البلاغة القرآنية في ملاك التأويل لابن الزبير الغرناطي"، تناول فيها الباحث الجوانب البلاغية والبيانية الواردة في آيات وسور القرآن الكريم، وكيف تناولها ابن الزبير الغرناطي في كتابه ملاك التأويل [٣].

وبالتالي، يهدف هذا البحث التأكيد على أن التجريد والزيادة والتقديم والتأخير والإسناد الواقع في بعض آيات القرآن الكريم يعد من روافد الإعجاز اللغوي والبياني.

(١) صالح بن عبد الله الشثري، المتشابه اللفظي في القرآن الكريم، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، السعودية، ٢٠١١.

(٢) تهاني بنت سالم بن أحمد باحويرث، أثر دلالة السياق القرآني في توجيه المتشابه اللفظي في القصص القرآني دراسة نظرية تطبيقية على آيات قصص نوح وهود وصالح وشعيب عليهم السلام)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، السعودية، ٢٠٠٧.

(٣) إبراهيم عبد العزيز الزيد، البلاغة القرآنية في ملاك التأويل لابن الزبير الغرناطي، دراسة وتقويماً، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ٢٠١٠، ط١، دار كنوز إشبيليا – الرياض.

اتبع البحث المنهج الاستقرائي في دراسة الآيات الكريمة التي وقع فيها التجريد، والزيادة والتقديم، والتأخير، والإسناد في عدد من سور القرآن الكريم.

واشتمل البحث على مقدمة، ومباحث ثلاثة، هي، الأول: التقديم والتأخير، والثاني: التجريد والزيادة، والثالث: الإسناد إلى الفاعل والمفعول.

المبحث الأول: التقديم والتأخير

يعد التقديم والتأخير من أهم وأبرز مباحث علم المعاني، حيث تظهر فيه بلاغة الأساليب، وروعة العبارات، كما يدل على تمكن البليغ في الفصاحة، وحسن تصريف الكلام.

يقول الزركشي: "التقديم والتأخير هو أحد أساليب البلاغة، فإنهم أتوا به دلالة على تمكنهم في الفصاحة، وملكتهم في الكلام، وانقياده لهم، وله في القلوب أحسن موقع، وأعذب مذاق"(١).

فالتقديم والتأخير ورد في عدة مواضع في القرآن الكريم، ومن هنا جاء بحث علماء المتشابه في الآيات الكريمة المتشابهة في التقديم والتأخير، واستخراج دقيق لأسرار الاختلاف بين الآيات التي توضح منهج القرآن الكريم في التقديم والتأخير في ضوء الآيات المتشابهة.

ويعرض هذا البحث باختصار ما أورده بعض علماء وأئمة التفسير، وموجه و المتشابه، من أقوال وتوجيهات لمسائل الآيات المتشابهة في التقديم والتأخير، التي وردت في بعض سور القرآن الكريم. وبداية أول موضع في آيتي سورة الملك، وذلك على النحو الآتي:

الشاهد الأول:

قال تعالى: {أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ} [الملك: ١٦]، ثم قال تعالى: {أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ} [الملك:١٧].

والشاهد في الآيتين الكريمتين تقديم "الخسف" في الآية الأولى على "الحاصب" في الآية الثانية.

بينما في سورة الأنعام: قدم سبحانه وتعالى المؤخر أي: "الحجارة الحاصبة"، في قوله تعالى: {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ} [الأنعام: ٦٥]، وذلك بسبب تقدمها

(١) البرهان في علوم القرآن، (٣/ ٢٣٣).

في قوله تعالى: وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ [الأنعام: ٦١].

فالآيتان الكريمتان السابقتان من سورة الملك تضمنتا متشابهًا لفظيًّا من حيث التقديم والتأخير، فتقدم التوعد "بخسف الأرض" على الكفار في الآية السادسة عشرة على التوعد "بإرسال الحاصب" من السماء على الكفار في الآية السابعة عشرة.

فما رأي علماء المتشابه في هذا التقديم والتأخير الواقع في السورتين الكريمتين؟

وفي ذلك قدم الإمام ابن الزبير ﷺ: "تعليلاً حسنًا لسبب تقديم التوعد بعذاب الكافرين "بخسف" الأرض بهم على التوعد بعذاب الكافرين بإرسال "الحاصب" عليهم من السماء، وتساءل الإمام ابن الزبير قائلاً: لماذا اختير تقديم الوعيد بالخسف على الوعيد بإرسال الحاصب من السماء؟ وما الفرق بين الوارد في سورة الملك والوارد في قوله تعالى في الأنعام من تقديم للمؤخر ومن تأخير للمقدم؟

واعتمد ابن الزبير في جوابه على النظر للسياق المتقدم للآية، وتفقد مبانيه، والموضوعات التي تعالجه، ثم ربط ذلك بسياق آيتي سورة الملك، وقال: لما تقدم ما اتصل به التوعد بخسف الأرض في قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ} [الملك: ١٥] أراد سبحانه تذكير الكفار بنعمه، ومنها جعل الأرض ذلولاً لهم، وجاء ذلك بخطاب متصل غير منفصل، وملتصق غير متباعد، فكان ذلك أنسب شيء لهذه في الموعظة، وهو تذكيره سبحانه للكفار اتعاضًا بخسف الأرض بهم، مما ناسب تقدم التوعد بخسف الأرض بالكفار على التوعد بإرسال الحاصب عليهم من السماء.

وأضاف الإمام ابن الزبير: وأما في سورة الأنعام فتقدمها قوله تعالى: {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ} ففيها صرف هذا الخطاب الإلهي التفكر في عين الجهة التي ذكر منها القهر، فكان أنسب شيء ذكر التخويف من تلك الجهة، وهي من فوق، أي: السماء العليا، بخلاف آية الملك؛ لذا فإن كل آية من هاتين الآيتين تبين حال الأخرى، وإن التناسب إنما هو فيما وردت عليه كل آية

منهما، وإن العكس غير مناسب [١].

ففي آيتي سورة الملك خطاب من الله سبحانه للكافرين، وفيه إنكار وتوبيخ للكافرين لتماديهم في الكفر، وتكذيبهم الرسل، والمعنى: أأمنتم الله أيها الكافرون أن يخسف بكم الأرض، فإذا هي تذهب بكم وتجيء وتضطرب، أم أمنتم الله أيها الكافرون أن يرسل عليكم التراب الذي فيه الحصباء والحجارة والرمال، فستعلمون أيها الكفرة عاقبة نذيره سبحانه لكم إذا كذبتم به وبرسوله، كما كذب الذين من قبلكم من المشركين رسلهم، وتذكروا كيف كان إنكاره سبحانه عليهم بتكذيبهم [٢].

كما تقدم توجيه الإسكافي على ما ذكره الإمام ابن الزبير من تعليل، والذي توافق معه في توجيهه [٣].

وأما الكرماني فلم يعلل سبب التقديم والتأخير على ما يجب، وقال: بعد أن توعد الله سبحانه الكفار بخسف الأرض بهم لكونهم على الأرض، جاء بعده توعده لهم بإرسال الحاصب عليهم من السماء [٤].

وأما نظرة فخر الدين الرازي للتقديم والتأخير الوارد في آيتي سورة الملك فقائمة على السياق المتقدم لآيتي الملك، قال تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ}. كما أكده بعدة مؤكدات مترادفة وردت في سورة الأنعام في قوله تعالى: { قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ }، وقوله تعالى في سورة

(١) ملاك التأويل، (١/ ١٠٩١).

(٢) ينظر: جامع البيان، (٢/ ٤٧٢)، إيجاز البيان عن معاني القرآن، (٢/ ٨٢٦).

(٣) درة التنزيل وغرة التأويل، (١/ ١٢٨٨-١٢٨٩).

(٤) البرهان في توجيه متشابه القرآن، (١/ ٢٣٨).

القصص:{ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا } [القصص: ٨١] ورأى الرازي: إن تقدير الآية هو: أأمنتم من في السماء عذابه؛ لأن الله سبحانه ينزل البلاء على من يكفر من السماء، فالسماء موضع نزول العذاب، كما أنها موضع نزول الرحمة، والمراد تخويف الكافرين بعد أن أقروا واعترفوا بقدرته سبحانه على ما يشاء بخسف الأرض بهم، وفي الآية الثانية زاد سبحانه في التخويف والحاصب: ريح فيها حجارة وحصباء، وقيل: سحاب فيها حجارة، ثم هدد وأوعد سبحانه والنذير هنا هو المنذر، يعني: محمدًاﷺ(١).

وتعليل الشوكاني أن الآيتين مبنيتان على التهديد والوعيد للكفار، فخوفهم سبحانه في الآية الأولى بخسف الأرض بهم بعدما جعلها لهم ذلولاً يمشون في مناكبها، ثم كرر سبحانه التهديد والوعيد للكفار في الآية السابعة عشرة بوجه آخر، وهو إرسال الحاصب من السماء. وخلص الشوكاني إلى القول: بأن التوعد بإرسال الحاصب هو كالتوعد في خسف الأرض بالكفار(٢).

ولم يقدم ابن عاشور تعليلاً واضحًا لسبب التقديم والتأخير الوارد في آيتي الملك، ورأى: أن التقديم والتأخير هو تفنن في الكلام تنتفي فيه سآمة الإعادة مع حصول المقصود من التكرر، كما قال: لا أرى سببًا كافيًا للتقديم والتأخير في الآيتين، وأما ما ذكره علماء المتشابه من توجيه، وما ذكره المفسرون فهو مقبول، وكلها أسرار استنبطها العلماء من تلك الآيات الكريمة(٣).

وبعد مطالعة ما تقدم ذكره من تعليل وتوجيه، يتضح أن تعليل ابن الزبير للتقديم والتأخير الواقع في آيتي سورة الملك جاء توجيهًا شاملاً ومفصلاً، اعتمد فيه على السياق المتقدم لآيتي الملك السادسة عشرة والسابعة عشرة، والذي تضمن تذكير الكفار بنعم الله عليهم بجعل

(١) ينظر: مفاتيح الغيب، (٣٠/ ٥٩٢).

(٢) ينظر: فتح القدير، (٥/ ٢٦٢).

(١) ينظر: التحرير والتنوير، (١/ ٦٠٨).

الأرض ذلولاً لهم، فكان أنسب شيء لهذه الموعظة تقديم توعده سبحانه لهم بخسف الأرض بهم بعدما جعلها سبحانه ذلولاً لهم، على توعده سبحانه بإرسال الحاصب عليهم من السماء، وأما في سورة الأنعام الخامسة والستين ناسب تقدم ما هو من جهة فوق الأرض، وهو إرسال العذاب؛ لذا تقدم المؤخر، وتأخر المقدم في آية الأنعام، خلافًا لما ورد في سورة الملك.

كما يتبين أن توجيهات الأئمة والمفسرين متشابهة إلى حد كبير، إلا أنه كان لكل منهم أسلوبه وطريقته في التوجيه، فما قدمه الإمام ابن الزبير من توجيه ورد كذلك عند الإمام ابن جماعة، وقد سبقهما في ذلك الإسكافي، كما يُلاحظ أن بعض المفسرين اهتموا بتفسير المعاني والدلالات للآيات دون ذكر توجيه لسبب التقديم والتأخير الوارد في الآيتين.

المبحث الثاني: التجريد والزيادة

إن لصيغ الفعل المختلفة دلالتها وإيجازها في الجملة الفعلية، فربما يرد الفعل في آية بلفظ الماضي، وفي آية أخرى بلفظ المضارع، وهذا في الغالب يتبع الزمن المراد في الجملة القرآنية، فالمضارع يدل على زمن الحاضر أو المستقبل، ويفيد تكرار الفعل وتجدده، أما الماضي فيدل على وقوع الحدث في الزمن الماضي، وربما يوضع أحدهما مكان الآخر لسر بلاغي مراد، أو نكتة بيانية مقصودة.

وفي هذا السياق يقول ابن الأثير في المثل السائر: "اعلم أن الفعل المستقبل إذا أتي به في حالة الإخبار عن وجود الفعل، كان ذلك أبلغ من الإخبار بالفعل الماضي؛ وذلك لأن الفعل المستقبل يوضح الحال التي يقع فيها، ويستحضر تلك الصورة، حتى كأن السامع يشاهدها"(١).

(١) ينظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، (٢/ ١٤٥).

ومن الآيات التي تضمنت مسائل المتشابه من حيث التجريد والزيادة، الآيات الكريمة الآتية.

الشاهد الأول:

قال تعالى: { سَبَّحَ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) [الحديد: ١]، وقال تعالى: { سَبَّحَ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [الحشر: ١] [الصف: ١]، وقال تعالى: {يُسَبِّحُ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ } [الجمعة: ١]، وقال تعالى: { يُسَبِّحُ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [التغابن: ١].

تمت دراسة توجيه المتشابه اللفظي في التجريد والزيادة ل (ما) الوارد في مسألتي آيات سور [الحديد، الحشر، التغابن] على نحو متصل، دون فصل لآية عن غيرها؛ وذلك لتشابه هاتين المسألتين في التجريد والزيادة، ولتلافي تكرر آراء العلماء والمفسرين هنا.

حيث إن (ما) وردت مرة واحدة في آيتي الحديد والتغابن، ومرتين في آيات الحشر والصف والجمعة والتغابن، وبعد إطالة النظر في الآيات السابقة نجد أن (ما) وردت مرة واحدة في الآية الأولى من سورة الحديد، وفي الآية الرابعة من سورة التغابن، ثم تكررت في الآية الأولى من سور [الحشر والصف والجمعة والتغابن]، وتكررت في الآية الرابعة من التغابن بعد أن وردت في الآية نفسها.

إن هذا التفنن في أسلوب مجيء الحرف (ما) مرة واحدة في بعض الآيات، ومجيئه مرتين في أخرى، أثار دهشة العلماء والأئمة والمفسرين حول مجيئه على هذا الشكل المكرر. وعند تناول آراء وأقوال الأئمة والمفسرين بالدراسة، نجد:

ورأى الإمام ابن الزبير: "أن سبب عدم تكرر الحرف (ما) في آية سورة الحديد هو من أجل مطابقة الكلام بما اتصل به من بعده، قوله تعالى: { لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }، ولما لم تكن هذه الآية مستدعية لفظ ما روعي ذلك في الآية التي قبلها؛ وذلك لتناسب ولتشاكل الآيتين،

فلو وردت ما في الآية التالية لكانت فقط من أجل التأكيد، ولسقط التناسب والتشاكل اللفظي بين الآيتين، ولمزيد من التوضيح استشهد الإمام ابن الزبير بما ورد بعد الآية الثانية من سورة الحديد، وهو قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} [الحديد: ٤]، فتناسب هذا كله مع ما يجب، وأما في سور [الحشر والتغابن والصف والجمعة] فلم يرد فيها ما يستدعي التناسب والتشاكل، فوردت ما مكررة في قوله تعالى: {سَبَّحَ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} [الحشر، والصف، والجمعة، والتغابن]؛ لأنه قصد بها الاستيفاء والإحاطة بما اشتملت عليه السماوات والأرض، فلما اقترن بهذه الآيات ما يعطي إحاطة علمه سبحانه بجزئيات ما، وأنه لا يغيب عنه شيء، لم يحتج ذلك إلى إعادة ما مرة ثانية؛ لأن ذلك يكون تكرارًا لا يحرز معنى، والله أعلم"[1].

وأما الإمام ابن جماعة: فقد أشار في توجيهه إلى تشابه الألفاظ الوارد في آيات سورة الحديد، واعتبر عدم ورود الحرف ما مرتين في الآية الثانية هو لأجل التشاكل والتناسب مع ما بعدها من الآيات التي لم يكرر فيها الحرف[2].

كما علل الإمام ابن جماعة مجيء الحرف ما مكررًا، وذلك لأن تسبيح أهل السماوات يختلف عن تسبيح أهل الأرض في الكمية، والنوعية، والمواظبة، والإخلاص؛ مما ناسب ذلك الاختلاف التفصيل في ما؛ لهذا تكرر الحرف ما هنا.

كما أبان الإمام ابن جماعة "أن الحرف ما لم يكرر وذلك لأن العلم هنا معناه واحد، ولا يختلف معناه باختلاف المعلومات؛ مما ناسب ذلك حذف الحرف ما؛ لاتحاده في نفسه فلم يتكرر، وعلل سبب تكرر ما باختلاف معنى الإسرار ومعنى الإعلان في آخر الآية نفسها؛ مما

(١) ملاك التأويل، (١/ ١٠٦٩).

(٢) كشف المعاني، (٤/ ٣٧٧-٣٧٩).

ناسب ذلك تكرر الحرف ما؛ لما بين السر والعلانية من البيان والاختلاف؛ لأن الفرق بين الله سبحانه وبين غيره هو في علم السر والعلن دون السر"[1].

في حين رأى فخر الدين الرازي : "أن الحكمة من عدم تكرار ما: هو أن مجموع السماوات والأرض واحد، فالخلق واحد، وكل ما فيهما خلق الله ﷻ، وبديع صنعه، وأما ما تدل على ما في السماوات والأرض، فهي لم تكرر في استهلال سورة الحديد ليطابق بالكلام ما اتصل به من قوله تعالى، فلم تكن هذه الآية مستدعية زيادة ما، وروعي ذلك لتناسب الآيتين مع حصول المعنى، وقدم سبحانه السماوات على الأرض؛ لأن أهل السماوات أسبق في التسبيح، كما يستدل كذلك أن خلق الملائكة أسبق من خلق آدم عليه السلام، فالملائكة أسبق بالتسبيح من بني آدم، وأما ورود ما مكررة في آيات [الحشر والتغابن والصف والجمعة]؛ فذلك لأن تسبيح أهل السماوات يختلف عن تسبيح أهل الأرض في الكم، والنوع، والإخلاص، والمواظبة؛ مما ناسب ذلك التفصيل في ما"[2].

وقال الزركشي : إن ما تتناول الأجناس كلها تناولاً عامًّا، و(من) لا تتناول غير العاقل بأصل الوضع[3]، وهذا أمر معقول، فغير العاقل من موجودات في السماء والأرض أكثر من موجودات العاقل، وكونها تسبح لله فيغلب استعمال ما؛ لكثرة غير العقلاء غير المسبحين لله في ملكه، فاستعملت ما مع العاقل، وغير العاقل، وفي وضع اختلاطهما، ففيهما من الإنس والملك والجن، والحيوان والنبات والجماد[4].

وقال ابن عاشور: "في قوله تعالى: { سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ } يعم الموجودات

(١) كشف المعاني، (٤/ ٣٩٣).

(٢) مفاتيح الغيب، (٣٠/ ٢١).

(٣) ينظر: البرهان في علوم القرآن، (١/ ١٢٥٠).

(٤) ينظر: البرهان في علوم القرآن، (٣/ ٣٠٧).

كلها، وإن ما اسم موصول يعم العقلاء وغيرهم، أو قد يكون خاصًّا بغير العقلاء، وهو الأغلب، إلا أن جميعها دال على تنزيه الله تعالى عن الشريك، فمنها دلالة بالقول كتسبيح الأنبياء والمؤمنين، ومنها دلالة بالفعل كتسبيح الملائكة، ومنها دلالة بشهادة الحال كما تنبئ به أحوال الموجودات من الافتقار إلى الصانع المنفرد بالتدبير؛ لذا فإن جعل عموم ما في السماوات والأرض مخصوصًا بمن يأتي منهم النطق بالتسبيح، وهم العقلاء؛ ورأى أن سبب تكرار ما في آيات الاستهلال مرد ذلك إلى اختلاف تسبيح أهل الأرض وأهل السماء في الكثرة والقلة، والبعد والقرب من المعصية والطاعة"[1].

وقال الشنقيطي: إن استعمال ما في آيات التسبيح، والأصل أن تستعمل ما لغير العاقل، وقد تستعمل للعاقل، وتستعمل في موضع اختلاط العاقل مع غير العاقل، وقد يغلب غير العاقل على العاقل لكثرته[2].

والمعنى الإجمالي: فقد وردت في سور المسبحات ظاهرة تكرار (ما) في بعض الآيات بذكر تسبيح الله سبحانه وتنزيهه، والمعنى المراد بالتسبيح هنا هو: المسند إلى السماوات والأرض من العقلاء، وغيرهم من الحيوانات والجمادات، وهو ما يعم التسبيح بلسان المقال كتسبيح الملائكة والإنس والجن، وبلسان الحال كتسبيح غيرهم من الخلق، فإن كل موجود يدل على الصانع، وفي ذلك إيذان بأهم ما اشتملت عليه من إثبات ووصف الله بالصفات الجليلة المقتضية تنزيهه عن كل ما دونه من خلقه، وإقرارًا بربوبيته، وإذعانًا لطاعته، وأول التنزيه هو نفي الشريك له في الإلهية[3].

وترى الباحثة: أن الإمام ابن الزبير أبان سبب عدم تكرر ما في آية سورة الحديد وهو لمطابقة

(١) التحرير والتنوير، (٢٧/ ٣٦٧).

(٢) ينظر: أضواء البيان، (٧/ ٨٦٢).

(٣) ينظر: فتح القدير، (٥/ ١٦٥)، الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية، (٢/ ٣٨٥).

الكلام بما اتصل به من بعده، ولو أنها أعيدت سيكون ذلك تكرارًا دون معنى، ولسقط التناسب والتشاكل اللفظي بين الآيتين، وأما في آيات سور [الحشر والتغابن والصف والجمعة] فقد رأى ما لا يستدعي التناسب والتشاكل، فوردت ما مكررة فيها. إلا أن الإمام ابن جماعة لم يقدم توجيهًا مختلفًا عما جاء به الإمام ابن الزبير، إلا أن تعليل كل من: الإمام ابن الزبير، والإمام ابن جماعة، والكرماني، والزركشي، ومن وافقهم، هو السائد المعتبر في مسألة التجريد والزيادة لحرف ما في آيات المسبحات؛ نظرًا لشموليته، وعرضه لبقية الآيات المتشابهة، كما أن للتعليلات الأخرى قيمتها، ولا يمكن إغفالها كونها ركزت على دلالة المعنى للآيات المتشابهة.

الشاهد الثاني:

قوله تعالى: {لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [الحديد: ٢]، ووردت بعد آيات قليلة آية شبيهة لهذه الآية في السورة نفسها، قوله تعالى: لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ [الحديد: ٥]، فما حكمة إعادة هذه الآية مرتين في مكان قريب من السورة نفسها، وما الوجه البلاغي فيه؟

قال الإمام ابن الزبير: "للسائل أن يسأل عن إعادة قوله: {لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مع قرب هاتين الآيتين وعن تعقيب الأولى بقوله: وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، والثانية بقوله: وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ}.

والجواب الأول: أن إعادة قوله تعالى: { لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } إنما أعيد لتقدم وصفه تعالى أنه المسبح المتعالي ذو العزة والحكمة، وأنه الذي له ملك السماوات والأرض، والقدير على كل شيء، والأول والآخر، والظاهر والباطن، العليم بكل شيء، والخالق للسماوات والأرض، والذي استوى على العرش بالقهر والقدرة، وفي ذلك كله تأكيد على أن ملك

السماوات والأرض له سبحانه وتعالى، وإليه رجوع أمر الخلق في جميع أمورهم، فلا تتحرك إلا بإذنه، ولا يصدر شيء إلا منه وعن قضائه، فتكرر قوله تعالى { لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }، فعقبت الآية الأولى بقوله: { وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } أي: هو القدير على كل شيء من الإماتة والإحياءِ وغير ذلك مما يدخل تحت حكم القدرة، فهذا التعقيب أنسب شيء وأوضحه، والله أعلم(١).

إلا أن الإمام ابن جماعة: استند في توجيهه حول حكمة إعادة قوله تعالى: { لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } مرتين في مكان قريب في السورة نفسها إلى "أن القول الأول جاء للدلالة على قدرته سبحانه على الخلق والبعث؛ لذلك عقب سبحانه في الآية الأولى بقوله: وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }، وأما تكررها في الآية الثانية فقد جاء للدلالة على أن مصير أمور الخلق كله إليه، وأنه المجازي عليها بالثواب أو العقاب على ما أحاط به علمه من أحوال السماوات والأرض، وأعمال الخلق، لذلك عقب بعد ذلك بقوله: {وَإِلَى اللهَّ تُرْجَعُ الْأُمُورُ} (٢).

وفي جواب الإسكافي: " إن في ذلك تأكيد بأن الملك لله أولاً وآخرًا، فالأول في الدنيا وهو وقت الإحياء والإماتة، والآخر في الآخرة حين ترجع الأمور إليه، ولا يملك أحد سواه اختيارًا في كلا الكونين في الدنيا والآخرة، لا ملكًا وملكًا، فقرن بالأول لأنهما من أمارات الملك، وقرن بالآخر ما يكون في الآخرة من مرجع الخلق وجزائهم بالثواب والعقاب إليه، فجاء في كل مكان ما اقتضاه، وما شاكل معناه"(٣).

وأما الكرماني فقد رأى أن ذلك ليس بتكرار، وإنما ورد كل واحد في معنى جديد، لِأَن الأولى

(١) ملاك التأويل، (١/ ١٠٧١).

(٢) كشف المعاني، (٤/ ٣٧٧-٣٧٩).

(٣) درة التنزيل وغرة التأويل، (١/ ٣٢٥).

فِي الدُّنْيَا، وَالثَّانِي فِي العقبى "[1].

وبعد مطالعة أقوال علماء التوجيه والتفسير، يلاحظ أن في الآية الأولى تأكيد لقدرته تعالى على الخلق والبعث، وفي الثانية دلالة على أن مصير الأمور كلها لله سبحانه، وأنه المجازي عليها بالثواب أو العقاب، فأرى أنه لا تكرار هنا، فهو استقلال كل آية عن الأخرى فيما تفيده من معنى، إلا أن الرازي أبدع في ذكر المسائل وذكر قوله تعالى في دلائل الآفاق أولاً، ودلائل الأنفس ثانيًا.

الشاهد الثالث:

قوله تعالى: {وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التغابن: ٩]، وقال تعالى: {وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا} [الطلاق:١١].

الآية الأولى من التغابن ورد فيها ذكر جملة يُكَفِّرْ، وجردت في الثانية من سورة الطلاق، مع أن المقصود واحد في الآيتين، ما السر في ذلك؟ وهل من فرق بين الموضعين؟

وبعد مطالعة تخريج الإمام ابن الزبير: يلاحظ أنه "استند في جوابه هنا عن سبب زيادة جملة يُكَفِّرْ في سورة التغابن إلى السياق المتقدم، وهو قوله تعالى: {زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا } [التغابن: ٧] مخبرًا سبحانه عن زعم كفار العرب أنهم لن يبعثوا أبدًا، فأمر سبحانه نبيه ﷺ أن يرد عليهم، ويبطل زعم المكذبين بالبعث، وأنهم سيبعثون، بقوله على لسان نبيه: { زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ } [التغابن: ٧] وبعدها ورد قوله تعالى: { فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [التغابن: ٨] فأعلم الله سبحانه بقوله: وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ أي أنه لا يخفى عليه شيء من

(١) البرهان في توجيه متشابه القران، (١/ ٢٠٠).

أعمال المكلفين بطاعته، وأن المنبأ به هو جميع أعمالهم من غير فوات شيء، ثم ذكر تعالى جمعهم ليوم الجمع، وبعد أن أخبر سبحانه عن المكذبين بالبعث، توجه سبحانه لإيناس المؤمنين بقوله: { وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } [التغابن: ٩] ؛ لذلك بعد أن بين سبحانه أنه لا يخفى عليه شيء من كل أقوال وأفعال الكفار، وأنه مجازيهم يوم يجمعهم ليوم الجمع مع أقوالهم وأفعالهم، واستثنى سبحانه من يؤمن بالله ويعمل العمل الصالح، والمعنى لا بد من وجود محتاج إلى تكفير سيئاته، وختم الإمام ابن الزبير بقوله: فهذا وجه زيادة قوله تعالى: يُكَفِّرْ في آية التغابن.

وأما في آية سورة الطلاق، فقد رأى الإمام ابن الزبير أنه ليس هناك ما يستدعي زيادة جملة يُكَفِّرْ في هذه الآية؛ لأن سياقها يستدعي أن لا يكون ذلك فيها؛ لأنه ورد قبلها قوله تعالى: {أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا } [الطلاق: ١٠] فالأمر بالتقوى يعم ولا يخص، ثم ورد قوله: { وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا} [الطلاق: ١٠-١١]. ففي هاتين الآيتين إشارة إلى المؤمنين المستوفين لأعمال الطاعات، وبعدها بيّن سبحانه أن كل من يتصف بحال هؤلاء المؤمنين في العمل الصالح قد لحق بهم في النجاة من العذاب، فورد قوله تعالى: {وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا } [الطلاق: ١١]؛ مما ناسب حال المؤمنين هنا عدم زيادة يُكَفِّرْ ؛ لذا فقد جاءت كل من الآيتين على ما يلائم ويناسب، ولم يكن ليناسب ورود العكس، والله أعلم"[1].

(١) ملاك التأويل، (١/ ١٠٨٧).

إلا أن ابن جماعة أوجز في توجيهه، ورأى أن: "سبب مجيء جملة يُكَفِّرْ في آية التغابن هو ما تضمنه قوله تعالى: {وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ} [التغابن: ٤]، ففي السر والعلن يدخل فيه أعمال الطاعات والسيئات؛ مما ناسب ذلك زيادة يُكَفِّرْ في آية التغابن، وأما في آية الطلاق فلم يتقدمها ذكر للسيئات، وإنما ورد في سورة الطلاق ذكر للصالحات فقط، وترك ذكر السيئات، كما تقدم فيها تكفير السيئات في قوله تعالى: { وَمَنْ يَتَّقِ اللهَّ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ } [الطلاق:٥]"(١).

بينما رأى فالإسكافي: "أن في الآيات المتقدمة لآية التغابن إخبارًا عن الكفار، وأن عليهم سيئات تحتاج إلى تكفير إذا آمنوا بالله، أما آية الطلاق فلم يتقدمها مثل ذلك، فلم تحتج إلى الزيادة، ولزيادة من التوضيح أبان الإسكافي: أن الآيات المتقدمة في التغابن تتحدث عن سيئات تحتاج إلى تكفير، وذلك عن طريق الإيمان بالله، ليمسح عنه سبحانه ما سبق من كفره، ثم يوجب له سبحانه جنات، وآية الطلاق لم يتقدمها خبر عن السيئات ليوعدوا بتكفيرها إذا تابوا عنها، وعملوا الصالحات مكانها، وكان مضمونًا تكفير السيئات في حال الإيمان وعمل الصالحات، فلم يحتج إلى ذكره كما كان الأمر في التغابن"(٢).

وقد وافقه الكرماني(٣)، وزكريا الأنصاري(٤).

ويمكن تلخيص المعنى الإجمالي للآيتين: فبعد أن أخبر سبحانه عن كفار العرب المكذبين بيوم البعث، أمر نبيه إخبارهم أنهم سيبعثون، وبعدها توجه سبحانه إلى إيناس من آمن وصدق وعمل بطاعته بمحو ذنوبهم، وإدخالهم جنات وبساتين تجري من تحت أشجارها

(١) كشف المعاني، (٤/ ٣٩٤).

(٢) درة التنزيل وغرة التأويل، (١/ ٢٨٠).

(٣) ينظر: البرهان في توجيه متشابه القرآن، (١/ ٣٤٧).

(٤) ينظر: فتح الرحمن، (١/ ٤٢٥).

الأنهار، خالدين فيها أبدًا، ولا يموتون ولا يخرجون منها، وخلودهم في الجنات هو النجاء العظيم جزاء إيمانهم، وأما الذين كفروا بقدرة الله سبحانه على البعث، وكذبوا بآياته الدالة على البعث، فأولئك أصحاب النار، خالدين فيها أبدًا[1].

المبحث الثالث

مغايرة الإسناد بين الفاعل والمفعول

كلما نظرت في أسرار ألفاظ القرآن الكريم وجدت أسرارًا عظيمة، ولطائف عجيبة، وقد كان لعلماء المتشابه اللفظي عناية بموضوع بناء الأفعال للفاعل والمفعول، فإسناد الفعل في كتاب الله تعالى للمجهول أو للمعلوم، يجيء لغرض بلاغي يستدعيه السياق القرآني، أو لتحقيق معنى مراد، أو لتسليط الضوء ولفت الانتباه نحو موضوع دون آخر، وفق ما اقتضاه السياق من بناء الفعل للمجهول، أو بنائه للمعلوم، وفي القرآن الكريم ورد ذلك في مواضع كثيرة، ومن الآيات التي تضمنت المتشابه اللفظي من حيث مغايرة الإسناد بين الفاعل والمفعول، التي تناولها العلماء والمفسرون بالتعليل والتوجيه لسبب ورودها على هذا النحو أو ذاك، ما يأتي.

وفي ذلك شواهد ثلاثة:

المتشابه في الإسناد إلى الفاعل والمفعول، وفيه ثلاثة شواهد يتم دراستها معًا؛ نظرًا للترابط فيما بين ألفاظ وجمل تلك الشواهد تتم.

قوله تعالى: {وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ} [الإنسان: ١٥]، وقوله: {وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ} [الإنسان: ١٩]

(١) ينظر: جامع البيان، (٢٣/ ٤١٩)، مفاتيح الغيب، (٣٠/ ٥٥٤)، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق، (٩/ ٣٢٨).

وقوله: {يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ} [الواقعة: ١٧].

رجح الإمام ابن الزبير: "سبب بناء الفعل يُطَافُ للمجهول، وعدم تسمية فاعله، وبنائه في الآية الثانية للفاعل يطُوفُ إلى بناء آيتي سورة الإنسان على تعظيم أهل الجنة، وما أعد لهم من نعم، فذكر في الآية الأولى ما يطاف عليهم من أواني الفضة والأكواب التي للطعام والشراب، وما يمزج به شرابهم من زنجبيل، وذكر سبحانه في الثانية الطائفين بها، وهم ولدان لا تظهر عليهم المشقة، وهم كاللؤلؤ المنثور حسنًا. وقال: فلما ذكرت أحوال الطائفين بالتفصيل، وما قدموه لأهل الجنة، ناسب ذلك إيراد تنعمهم مفصلاً بذكر المطاف به من أواني الفضة وأكواب الشراب، فقدم المطاف به لأنه الأهم في التقديم؛ لأن فيه تنعمهم ومأكلهم ومشربهم، وبعد ذلك أعقب ذكر الطائفين بأواني الفضة والأكواب، وهم الولدان المخلدون"(١).

وأما الإمام ابن جماعة:

وقال: "إن القصد من قوله تعالى: يُطَافُ هو وصف الآنية والأكواب والمشروب الذي يقدم لأهل الجنة، فأسند الفعل المبني للمجهول إلى المفعول، وأما المقصود في قوله تعالى: يطوف هو وصف الطائف، وهم الولدان المخلدون، فأسند الفعل إلى الفاعل، وهم الولدان، أو الخدم المخلدون"(٢).

والمعنى الإجمالي في هاتين الآيتين من سورة الإنسان كما في غيرها من آيات القرآن الكريم وصف دقيق لحياة النعيم لأهل الجنة، فهي تصف حال مجالسهم، وما يأكلون، وما يشربون، وما يلبسون، وما ذلل سبحانه لهم من اجتناء ثمر أشجار الجنة كيف شاءوا، وما يطاف عليهم بأوان من فضة صافية كصفاء الزجاج، يشربون فيها شراب أهل الجنة، ويطوف على هؤلاء

(١) ملاك التأويل، (١/ ١١٢٣).

(٢) كشف المعاني، (٤/ ٤٠٩).

الأبرار وهم غلمان مخلدون، لا تتغير أحوالهم، وهم كاللؤلؤ المنتشر هنا وهناك [1].

وأما الإسكافي فقد نظر إلى التناسب اللفظي الوارد في الشواهد الثلاثة، وهذه النظرة كثيرًا ما تتكرر في ملاحظته لسياق الآيات المتشابهة، وقال: "في يطاف هو فعل لم يسم فاعله، وبعده يطوف فعل سمي فاعله، وعلل اختصاص كل من المكانين بذلك؛ لأن القصد في يُطَافُ وصف ما يطاف به من الأواني دون وصف الطائفين بها، فلما كان المعتمد بالإفادة ذاك بني الفعل مقصودًا به ذكر المفعول به لا الفاعل، وأما في الثانية: فإن القصد فيها وصف من يطوف بالأواني؛ لذلك بني الفعل مقصودًا به ذكر الفاعل لا المفعول"[2].

ويلاحظ مما تقدم ذكره أن توجيهات الأئمة والمفسرين متشابهة إلى حد كبير، إلا أن الإمام ابن الزبير قد تناول الآيتين من حيث المعنى والدلالات اللغوية، وأوضح سبب الإسناد الواقع في الآيتين، وكذلك الإمام ابن جماعة، كما نلحظ أن غالبية الأئمة وجهوا اهتمامهم نحو تفسير المعاني والدلالات المتضمنة في الآيتين، ولم يبينوا سبب الإسناد مباشرة، وإنما يمكن استخلاصه من أقوالهم.

(١) ينظر: جامع البيان، (٢/ ٥٠٧)، تفسير القرآن العزيز، (٥/ ٧٢).

(٢) درة التنزيل وغرة التأويل، (١/ ١٣١٥).

المصادر والمراجع

١. إبراهيم عبد العزيز الزيد، البلاغة القرآنية في ملاك التأويل لابن الزبير الغرناطي، دراسة وتقويماً، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ٢٠١٠، ط١، دار كنوز اشبيليا – الرياض.

٢. أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي، أبو جعفر، ملاك التأويل وأسرار التنزيل، وضع حواشيه: عبد الغني محمد علي الفاسي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، بدون طبعة، ١٩٩٢، (١/ ١٠٩١).

٣. أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، السعودية، ١٩٩٢، ١/ ١١٢.

٤. تهاني بنت سالم بن أحمد باحويرث، أثر دلالة السياق القرآني في توجيه المتشابه اللفظي في القصص القرآني دراسة نظرية تطبيقية على آيات قصص نوح وهود وصالح وشعيب عليهم السلام)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، السعودية، ٢٠٠٧.

٥. أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: يوسف المرعشلي وآخرون، دار المعرفة، بيروت، لبنان1990 ، (٣/ ٢٣٣).

٦. أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأصبهاني المعروف بالخطيب الإسكافي (المتوفى: ٤٢٠هـ)، درة التنزيل وغرة التأويل، دراسة وتحقيق وتعليق: د/ محمد مصطفى آيدين، ، ط١، الناشر: جامعة أم القرى، وزارة التعليم العالي سلسلة الرسائل العلمية الموصى بها (٣٠) معهد البحوث العلمية مكة المكرمة، ١٩٩٠.

٧. أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن جماعة، كشف المعاني في المتشابه المثاني، تحقيق: مرزوق

علي، دار الشريف، الطبعة الثانية، ١٤٣٢هـ-٢٠١١م. (٤/ ٣٧٧-٣٧٩).

٨. أبو القاسم محمود عمر الزمخشري، أساس البلاغة، تحقيق: محمد باسل عيون السود، ١٩٩٧، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٩. ابن عقلية المكي، الزيادة والإحسان في علوم القرآن، ط١، ٢٠٠٦، ج٦، ص٣٣٦، جامعة الشارقة، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة.

١٠. شاهر مشاهرة، المتشابه اللفظي في القرآن الكريم: دراسة نحوية بلاغية، رسالة دكتوراه غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، ٢٠٠٤.

١١. صالح بن عبد الله الشثري، المتشابه اللفظي في القرآن الكريم، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، السعودية، ٢٠١١.

١٢. ضياء الدين بن الأثير، نصر الله بن محمداً المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانةً دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرةً بدون رقم طبعةً وسنة نشر،(٢/ ١٤٥).

١٣. لبيب محمد جبران صالح، المتشابه اللفظي في القرآن، دراسة مقارنة بين الإسكافي والغرناطي، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة ملايا، دار الفاروق للنشر والتوزيع عمّان، الأردن، ٢٠١٠.

١٤. محمد راشد بركة، المتشابه اللفظي في القرآن الكريم، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، السعودية، ٢٠٠٤.

١٥. محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، أضواء البيان وإيضاح القرآن، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م،(٧/ ٨٦٢).

١٦. محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمنيً فتح القديراً دار ابن كثير - دار الكلم

الطيب، دمشق - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ

١٧. محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤هـ،(١/ ٦٠٨).

١٨. محمد راشد البركة، المتشابه اللفظي في القرآن الكريم وتوجيهه، دراسة موضوعية، رسـالة ماجستير غير منشورة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، السعودية، ٢٠٠٤.

١٩. محمود بن حمزة الكرماني، أسرار التكرار في القرآن المسمى البرهان في توجيه متشابه القرآن، تحقيق: عبد القادر عطا، دار الفضيلة، بدون رقم طبعة، وسنة النشر.(١/ ٣٤٧).